الرقصة الأخيرة

كانت رغبتي أن أكون وحيدة تماماً في الغرفة، جلست أمام المرآة، أضع المساحيق الملونة على وجهي، أحاول أن أرسم وجهاً آخر، ابتسامة زائفة، أحاول أن أصبغ الحزن بألوان الفرح، أن أُحوِّل هذا الوجه الشاحب إلى وجه ملون، لكن الألوان لم تساعدني، كنت أشعر بأن ملامحي الجامدة تنتصر، وأن لون الحزن أقوى.

نظرتُ خلفي إلى الثوب الملقى على السرير كالجثة، ثوب أبيض ناصع، لون العرس، لون الزفاف، في نظري كان لون العبودية، هذا الثوب سيحملني إلى رجل لا أحبه.. ولن أحبه. صوت الأغاني كان عالياً في الخارج، وألوان الكهرباء تضيء غرفتي كل لحظة بلون جديد، في كل لحظة كنت أشعر بشيء مختلف.

الجميع في الخارج يرقصون. في الأرياف، للأفراح مذاق خاص؛ فهي للبنات لحظات حرية لا يمتلكنها دائماً، يحتفلون بزفافي إلى ابن عمي، أحد رجال القرية الأثرياء، رجل اختارني لأكون زوجة له، اختارني رغم أنني أكرهه، بل أكره كل شيء فيه، مشاعري لم تكن

ذات قيمة، المهم مشاعره هو، كرهته ولكنه عشق جمالي، جمالي قادني إليه، ولهذا كرهت ملامحي، جمال الملامح صار في حياتي قيداً حرمني من الكثير، نقلني سريعاً من عالم الطفولة إلى عالم النساء.

في حقيقة الأمر لم يكن هذا الاحتفال ليلة زفاف، كان صفقة، باعوني لهذا البغيض الذي دفع الثمن، اشتراني بماله، رغم أنه رجل بذئ الطباع، قبيح الملامح، سيئ السمعة، متزوج من غيري، وافقوا عليه، فتحوا له الأبواب لأنه دفع المقابل، باعوني مقابل قطعة أرض، قارنوني بالطين، بل إن الطين الذي في مثل لون ابن عمي كان أعلى مني قيمة.

بكيت لأبي، توسلت إليه دون جدوى، الصفقة كانت محكمة، البيع لا رجعة فيه، الرجوع في القرار فيه مساس بكل رجال العائلة، وكيف تواجه امرأة مثلي رجال العائلة، بل كل رجال القرية، كيف تقول امرأة: لا ؟ . . . هذه الكلمة لا يسمعونها من النساء في قريتي أبداً.

كنت أثق أن الرحمة لن تعرف طريقها إلى قلوب استبدلت بي قطعة أرض، كنتُ العتبة الضعيفة المكسورة التي عبر عليها الجميع دون اكتراث، باعوني وقبضوا الثمن، ثمني كان طيناً أسود، ما أرخصني.

تذكرتُ أمي، تذكرت صورتها التي لا تغادرني، تجلس أمام فرن البيت تخبز، وجهها أحمر بلون النار، صامتة قليلة الكلام، حدثتها باكية، كنت أريد أن أبقى في مدرسة القرية، تحدثت إليها بصوت مرتفع، وبإحساس طفولي متمرد صرخت، أريدها أن تسمعني، أريدها أن تتكلم، أن أسمع صوتها، أن تشاركني ثورتي، نظرت نحوي، قالت بهدوء قاتل: ماذا ستصنع منك مدرسة القرية ؟ هل ستحولك إلى رجل ؟ لا تعترضي فليس لاعتراضك صوت.

جاء أبي، سمع صوتي، وقبل أن أبدأ في الكلام عاجلني بضربة قاسية أفقدتني توازني، سقطت على الأرض دون بكاء، فقدت صوتي، كتمت الألم، عرفت أنني لن أذهب إلى المدرسة مرة أخرى، أدركت معنى ما تقوله أمي، صرت مثلها، اعتنقت الصمت مبدأ.

وبلا صوت رحلت أمي، رغم آلامها الشديدة رحلت في صمت، كانت شريكتي في خدمة رجال البيت، لم أسمعها يوماً تقول لا، بعد رحيلها أدركت كم كنت أحبها، شعرت أن الفتاة كائن يأتي بلا رغبة ويرحل بلا صوت.

تزوج أبي بعد رحيلها بشهر واحد، لم يشعر بالحزن لحظة واحدة، في البداية كرهت زوجة أبي، شعرت إنها تأخذ مكان أمي في

كـل شيء، كانت مختلفة كثيرة الكلام، بعد فترة من الوقت، وجدتها تذكرني بأمي في شيء واحد فقط، بدأ الصمت يسكنها، الصمت نفسه أمام فرن البيت، احمرار الوجه نفسه، المشهد نفسه، شعرت أن الصمت من صفات النساء، وأن من حق الرجال أن يتحلوا حتى بالقبح.

أنا امرأة جميلة، يجب أن أكون هكذا حتى يدفع الرجال، هو رجل قبيح، لا يهم، فليكن كما يريد، ولكنه يشتري الجميلات، ينتمي لعالم واسع النفوذ، مسيطر، عالم لعبته المرأة، المرأة في قريتي ـ حتى في عيون نسائها ـ يحكمها جمال الجسد.

منذ الطفولة حملت عبء أنوثتي، شغلوني بجسدي، صرت أخجل منه، عندما أسير في طرقات القرية الضيقة أحاول أن أخفي معالمي، أن لا أرفع رأسي، كنت أتعثر في سيري أحياناً كثيرة، أصطدم بأشياء لا أراها أمامي، كنت أتعجب: كيف لا ترفع رأسها من تنجب الرجال.، كانت العيون تلاحقني، فرغم المعالم المطموسة كان الجمال يطل بعيون حلوة ودلالات كثيرة، فالجمال مطارد بعيون لا تفهم إلا لغة الجسد.

طرق على باب الغرفة، إنها زوجة أبي تتساءل باستغراب لماذا لم أرتد ثوب الفرح ؟!

تردد ضاحكة وهي تغادر الغرفة: بسرعة.. العريس وصل.

أغلقت الباب خلفها، أمسكت الثوب بين يدي.. لا أطيقه، لا أستطيع أن أجعله يلامس جسدي، صوت الأغاني عالياً يعلن عن قدوم العريس، كان لابد أن أحتفل، أن أتراقص طرباً، أخرجت زجاجة صغيرة من أحد الأدراج، شربتها كلها، بدأت الدنيا تدور، شعرت بألم شديد في معدتي، بدأ السم يسيطر على جسدي، بدأت أتمايل بعنف من شدة الألم، نظرتُ إلى نفسي في المرآة.. كنت أتراقص بلا إيقاع، رقصة متخبطة، إنها رقصة الموت الأخيرة.

كل شيء من حولي يتساقط، هذه الألوان على وجهي تخفي إحساسي الرهيب بالألم، صرخت بأعلى صوتي: لا..... كانت أغلى ما رددته.

فجأة رأيت أمي، كانت تجلس على السرير تنظر إليّ صامتة، مددت يدي نحوها، حاولت أن أصل إليها، لم تتحرك. تابعت الرقص حتى سقطت على الأرض، ما زلت أسمع أصواتاً بعيدة، لم أعد أرى سوى أشباح تتراقص من حولي.

لحظة واختفى كل شيء، أغمضت عيني، تلاشت كل الصور، عم الظلام، صمت مخيف، لم يعد هناك ألم على الإطلاق، عندها فقط تحركت أمي وحملتني بعيداً، بعيداً جداً جداً.